مكتبتى ٣٤

# شجرة تنمو فى قارب

تأليف : يعقوب الشارونى
رسوم : أحمد أمين

دار المعارف

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٢٠٠٣ /٧١٦٣ |
| الترقيم الدولي | ISBN 977-02-6291-9 |

١١٧/ ٢٠٠١/ ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

الناشر: دار المعارف- ١١١٩ كورنيش النيل- القاهرة ج. م. ع.

كنت أدفع إلى الصيدلى ثمن علبة دواء القلب، عندما وجدت الصبى الذى يعمل فى الصيدلية ينقض على علبة الدواء التى أمسكها بيدى الأخرى،وهو يقول فى لهفة لصاحب الصيدلية: انتظر يا دكتور!

وتطلع إليه الصيدلى فى دهشة أكثر من دهشتى، وهو يسأله فى حدة: لماذا تتصرف بهذا الشكل؟

ووقف الصبى وكأنه يشعر بالندم، لكنه قال فى إصرار،وهو يشير إلى العلبة الفارغة التى أحضرتها، لأشترى واحدة اخرى من نفس الصنف: علبة الدواء التى سيأخذها الأستاذ ستة ملليجرامات!

ولم أستوعب فى البداية معنى تلك العبارة، لكننى تنبهت إلى الصيدلى وهو يستعيد من بين أصابع يدى العلبة التى أخذتها منه، ثم يقارنها بما هو مكتوب على العلبة الفارغة التى كنت قد أحضرتها.

ولم يشأ الصيدلى أن يعترف بخطئه،لكنه اتجه إلى رفرف صيدليته، وأحضر علبة أخرى تشبه،إلى درجة كبيرة، العلبة التى سبق أن أعطانى إيهاها.

وفى هذه المرة، حرصت على أن أقارن العلبة التى أحضرها لى الصيدلى، بالعلبة الفارغة التى أحضرتها، فوجدتهما متطابقتين، وعلى كل منهما ما يفيد أن كل قرص من أقراص الدواء به مقدار واحد ونصف ملليجرام من المادة الفعالة.

خرجت وقد غرفت فى دوامة وأنا أسأل نفسى: ما الذى كان سيحدث، لو أعطيت والدى جرعة دواء تساوى أربعة أضعاف الجرعة المقررة لقلبه المريض؟!

***

وقفزت إلى خيالى واقعة وفاة الممثل الكبير "نجيب الريحانى"، فقد شاهدت فى المتحف المقام فى منزله، والذى تحول إلى قصر من قصور الثقافة، الوصفة الطبية (الروشتة) التى كانت سبب وفاته.

لقد كنت فيها الطبيب: "٤ حبات كل ساعة"، بدلاً من أن يكتب "حبة واحدة كل أربع ساعات".

***

وكان هذا الخطأ القاتل، هو السبب فى فقد مصر فنانها القدير، بعد أن كان تماثل للشفاء من مرض "التيفويد" الذى أصيب به.

قلت لنفسى: لولا دقة ملاحظة هذا الصبى الصغير، لحدث لأبى ما حدث" لنجيب الريحانى".

وفى البداية همست فى إصرار: لن أشترى أى دواء آخر من هذه الصيدلية.

لكننى بعد لحظات، قلت لنفسى بل لابد أن أعود، لكى أعطى هذا الصبى مكافأة، لأنه كان السبب فى إنقاذ والدى من كارثة كان لابد ان يتعرض لها.

ومع ذلك وجدت نفسى أسرع إلى بيت والدى، لكى يتناول الدواء فى موعده الذى حدده الطبيب، فقد قال لنا فى آخر زيارة لوالدى:

احرصوا، بدقة، على أن يتناول مريضكم هذا الدواء فى موعده، واحذروا أن يتجاوز الجرعة التى حددتها.

***

وفى مساء ذلك اليوم، لم أنس أن أعود إلى الصيدلية، وما إن رآنى الصيدلى، حتى تغيرت ملامح وجهه، ولم يقابلنى بكلمات الترحيب التى اعتدت سماعها منه، بل ظهرت عليه علامات الارتباك.

وأدركت أنه لا يستطيع أن ينسى الخطأ الجسيم الذى كان يوشك أن يرتكبه فى حق مريضنا، لكننى جلست على المقعد المقابل لمكتبه، وقلت بغير مقدمات:

ما اسم ها الصبى الذى يعمل عندك؟

قال الصيدلى: تقصد "خالد"؟

سألته : أين هو؟

قال: ذهب إلى الصيدلية المجاورة، لإحضار بعض الأدوية التى تنقصنى.

سألته: كيف استطاع أن يجيد قراءة الإنجليزية وهو فى هذه السن الصغيرة؟

سألنى: أية لغة إنجليزية تقصد؟

قلت كيف تنتبه إلى أن أقراص العلبة بها ستة ملليجرامات من المادة الفعالية، وليس واحدًا ونصف الملليجرام؟

ولدهشتى الشديدة قال الصيدلى: خالد لا يعرف القراءة ولا الكتابة، لا اللغة العربية ولا الإنجليزية.

صحت فى دهشة: كيف استطاع إذن...؟

قال الصيدلى لقد حفظ أشكال علب الأدوية، كما انطبعت فى ذاكراته كل أشكال حروف والأرقام والعلامات المكتوبة على العلب والزجاجات، إنه لا يستطيع أن يقرأ "روشتات " الأطباء، لكنه يستطيع أن يميز، بدقة شديدة، بين علبة دواء وعلبة أخرى مهما كان بينهما من تشابه. لقد اكتشف بسرعة وسهولة، عن طريق قدرته البصرية، أن العلبة التى أحضرتها لك تختلف عن العلبة التى أحضرتها لى.

قلت: أفهم أنه لا يعرف الإنجليزية، لكنه فى سن من انتهوا من المرحلة الابتدائية، فكيف تقول إنه لا يعرف قراءة العربية ولا كتابتها؟

ولدهشتى قال الصيدلى: خالد لم يلتحق بأية مدرسة.

قلت وقد تزايدت دهشتى: وأين يسكن؟

قال الصيدلى: "هنا فى جزيرة الروضة".

***

فى تلك اللحظة دخل خالد من باب الصيدلة، وتأملت وجهه الوسيم، والقميص والبنطلون المتناسقين على جسمه الصغير، فقلت:

"ملابسه لا تدل على أنه جاء حديثاً من الريف،فهل هو من سكان الروضة القدامى؟".

"ملابسه لا تدل على أنه جاء حديثاً من الريف، فهل هو من سكان الروضة القدامى؟".

قال الصيدلى: لقد والد فيها.

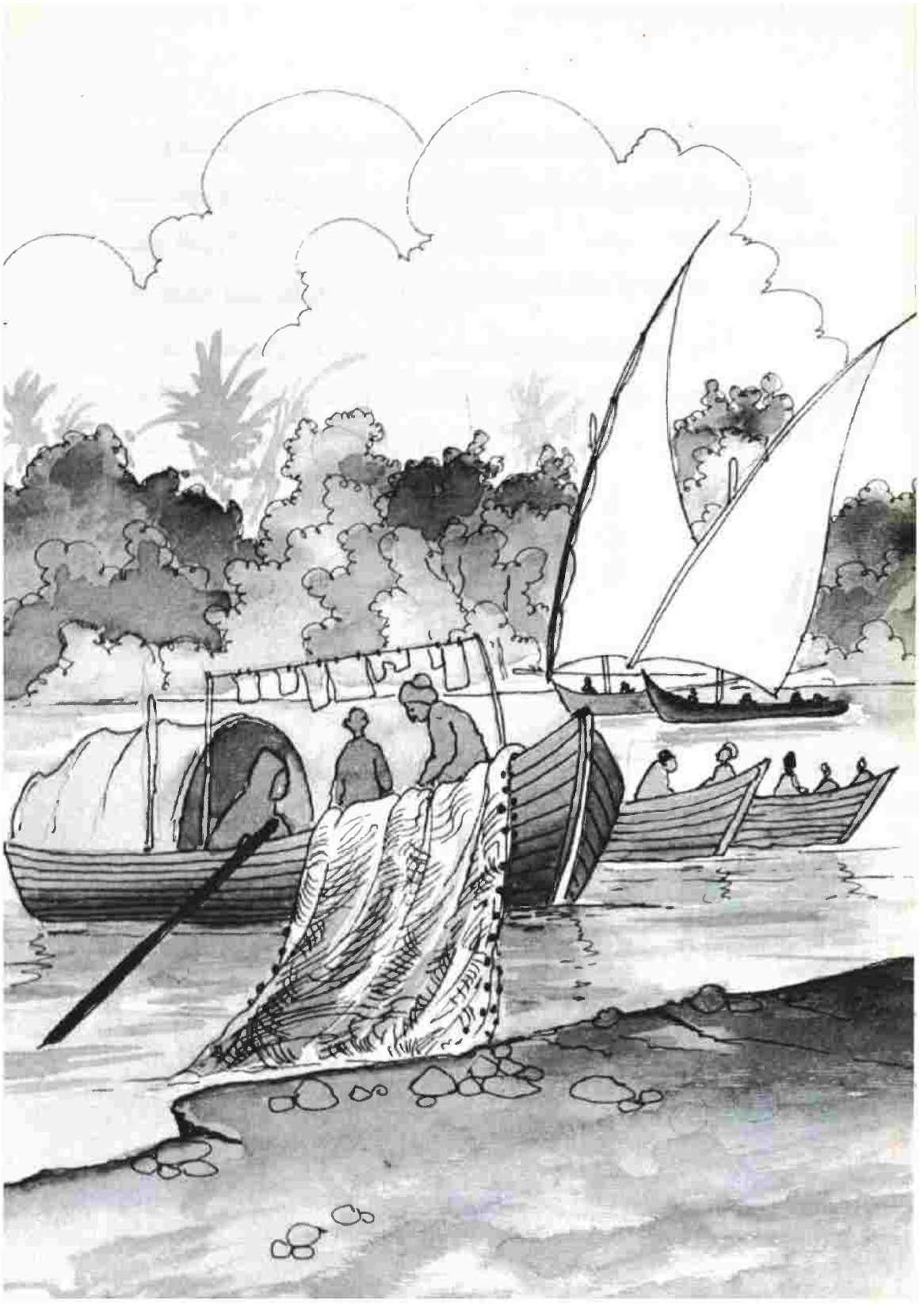

وعندما رأى دهشتى تتزايد، قال: هل تعرف سكان القوارب تحت "كوبرى عباس" الذين يجمع أصحابها نبات ورد النيل من فوق سطح النيل؟

قلت: إنهم طالما أثاروا اهتمامى.

قال الصيدلى: لقد ولد خالد فى أحد هذه القوارب، وعاش فيه مع أسرته. ولم يشعروا أبدًا أنهم ينتمون إلى المجتمع الذى لا يفصلهم عنه إلا انحدار شاطئ النيل.

واقترب منا خالد، فلم أملك نفسى من أن أسأله، لماذا لم تذهب إلى المدرسة يا خالد؟

قال خالد: أنا أريد أن أتعلم.

قلت له: لكنك لم تجب عن سؤالى.

قال: كل أبناء وبنات أصحاب القوارب، لم يذهبوا إلى المدرسة.. ليس لنا شهادات ميلاد..... وأبى يقول إن مهنة الصياد لا تحتاج إلى مدرسة.. هو المعلم وأنا الصبى، يقول إن الذهاب إلى المدرسة مضيعة للوقت.

قلت وأنا أحاول أن أخفى استنكارى: إذن هو يتصور أن القارب والشباك والصنادير هى المدرسة اللازمة لك؟

قال خالد: نحن نعيش حياة مختلفة فى كل شئ عن حياتكم. لم أكن أعرف معنى "دورة المياه" فدورة مياهنا كان الأماكن المظلمة عند التقاء قاعدة "الكوبرى" بالشاطئ. والاستحمام فى ماء النيل عندما يخيم الظلام، هو ما اعتدنا عليه عندما تقدم بنا العمر، بعد ولادتنا فى قارب أبى.

وقد تسللت مرة إلى عمارة تحت الإنشاء، لأرى كيف تتكون الشقة من عدة غرف، وما المكان المخصص للمطبخ ودورة المياه، لكننى لم أر أبدًا التجهيزات التى يتم تركيبها أو وضعها فى كل غرفة. أما دورات المياه، فق عرفت شيئًا عنها من دورات المياه العمومية!

وأضاف خالد: لكننى بعد غروب شمس كل يوم، كنت أرى الأولاد والبنات يجلسون على سور "شاطئ الكورنيش" مع أهلهم.

كنت أتطلع إلى ملابسهم، وأستمع أحيانًا إلى أحاديثهم، وأسأل نفسى:

لماذا لا أستطيع أن أكون صديقًا لهم؟

سألته: ولكنك تستطيع أن تكسب صداقتهم!

قال خالد: "تصورت فى البداية أن الفرق بينى وبينهم، يرجع إلى ملابسى. كنت أرتدى الجلباب (الجلابية). ومع أن والدتى كانت تغسله فى النهر مرة كل أسبوع، إلا أنه كان يبدوا دائماً غير نظيف. وبدأت أطلب من والدى أن يعطينى مصروفًا، لأننى كنت أساعده فى عمله.

سألته: أنت إذن تجيد صيد السمك؟

قال: لم يعد صيد السمك هو مهنة أبى الرئيسية، بعد أن اتفقت معه وزارة الرى على أن يشترك مع زملائه الصيادين، فى جمع نباتات ورد النيل المتراكمة على سطح الماء أمام "الكوبرى"، ونقلها إلى الشاطئ. وهذا العمل يحتاج أن تتعاون الأسرة كلها فيه، فهناك من يهتم بحفظ توازن القارب. وهناك الذين يتعاونون على جمع النباتات العائمة ووضعها فى القارب. وعندما يمتلئ القارب، نعود به إلى الشاطئ لتفريغه، وتستمر هذه العملية معظم ساعات النهار..

وأحياناً نخرج فى الليل للصيد، فنوفر بعض الأسماك لطعامنا، وقد نبيع منها كميات قليلة من إذا زادت عن حاجتنا.

سألته: وهل حصلت بذلك على ما كنت تحتاج إليه من مال؟

قال: لم يكن المال هو ما أبحث عنه، بل اشتريت بمصروفى ملابس تشبه ملابس من كنت أراهم فى مثل سنى على "الكورنيش" وبدأت أصعد وأجلس على سور "الكورنيش"، لعلى أستطيع مصادقة بعض من يحضرون لقضاء فترة ما بعد الظهر. لكننى اكتشفت أنه من الصعب جدًا أن أفوز بصداقتهم.

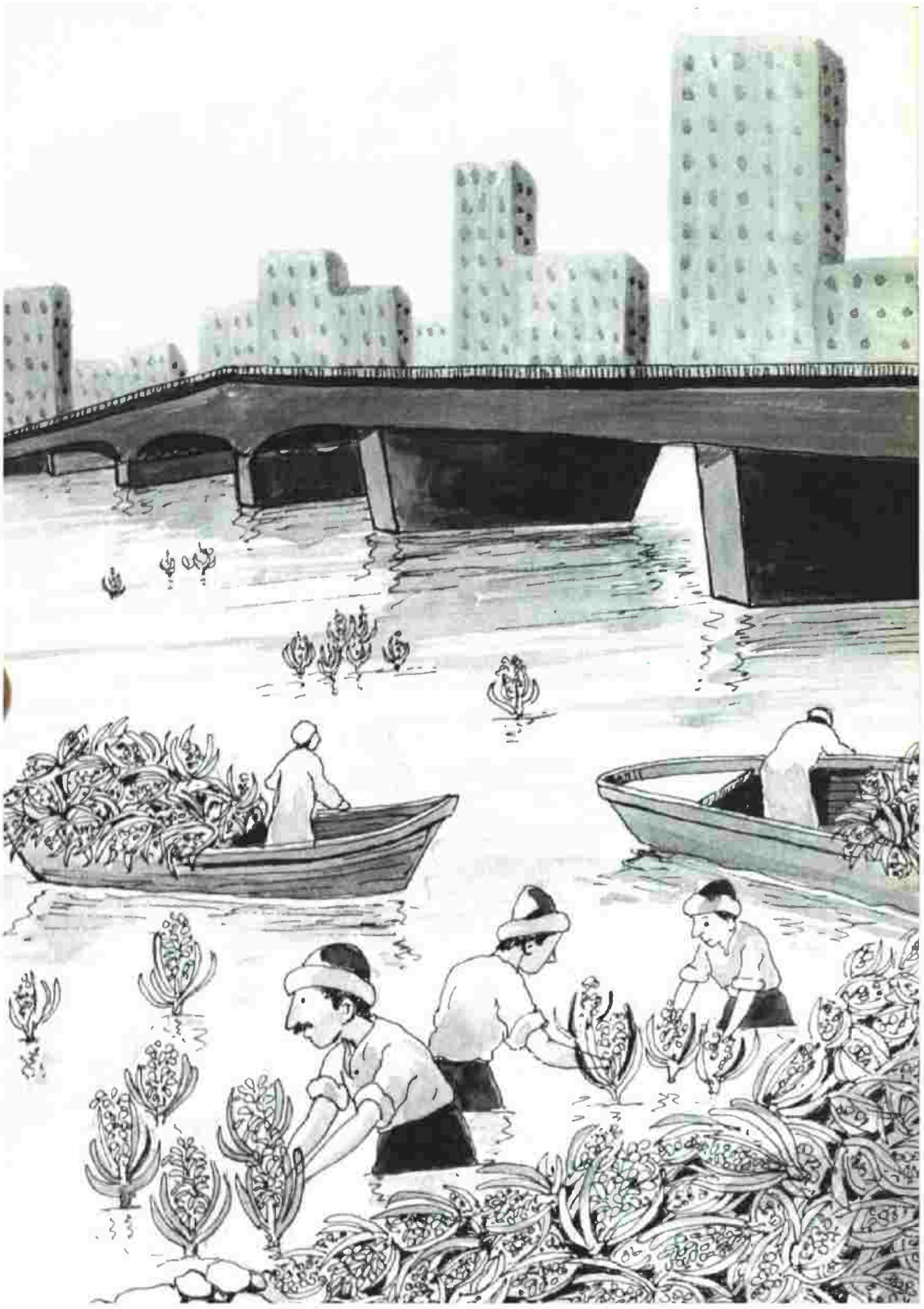

سألته: إنشاء الصداقات يحتاج إلى وقت.. لعلك تعجلت الأمور!

قال: كنت أجلس أصغى إلى أحاديثهم، فأجدهم يتحدثون عن موضوعات لا أعرف عنها شيئاً.

وكانوا يجيئون مع أهلهم، الذين لا يسمحون لهم بالحديث مع الغرباء مثلى.

وحدث ذات مرة أن جاءت مجموعة من الأصدقاء فى مثل سنى، ليتسابقوا بدراجاتهم الصغيرة. وقد سقطت فتاة منهم من فوق دراجتها وانطلقت تبكى وهى مرتمية فوق الأرض، فأسرعت أساعدها على الوقوف، لكننى وجدتها النظر لى فى خوف، وأسرع من كانوا معها من زملاء يبعدونها عنى، بغير أن يوجهوا لى كلمة شكر.

وأضاف خالد: عندئذ نقلت لنفسى: إذن ليست الملابس هى السبب الذى يبعدنى عنهم.

***

هنا تدخل صاحب الصيدلية قائلاً: هل هذا ما جعلك تفكر فى أن تأتى إلى صيدليتى يا خالد؟

قال خالد: لقد قلت لنفسى: لو غيرت المكان الذى أعيش فيه، فقد أستطيع تكوين صداقات مع هؤلاء الصغار.

وبدأت أشعر أن حياتى على حافة الماء، هى التى تبعدنى عن المدينة الكبيرة، ببيوتها وشوارعها. فكنت أصعد فى الصباح، أتأمل الأطفال يخرجون فى وقت مبكر من بيوتهم المطلة على النيل،

وهم يلبسون ملابس متشابهة. وبعضهم يركب سيارات تجمعهم من أمام بيوتهم.

وأضاف خالد: سألت أبى: ما هذه الملابس المتشابهة التى يرتديها أطفال العمارات المطلة على "الكورنيش"؟ وإلى أين تأخذهم هذه السيارات فى الصباح؟

وفى ببساطة قال والدى: السيارات تأخذهم إلى مدارسهم، وكل مدرسة لها زى خاص بها.

والتقطت من كلام أبى كلمة "مدرسة" وقلت لنفسى: لا شك فى أن "المدرسة" هذه هى السبب فى تقارب الأطفال الذين أراهم على الكورنيش.

***

وبدأت أتجول إلى شوارع الروضة، إلى أن وجدت أقرب مدرسة إلى الشاطئ الذى نعيش على شطح الماء بجواره.

ووقفت من بعيد، أتأمل الآباء والأمهات، يأتون فى الصباح وهم يمسكون بأيدى بناتهم وأولادهم، ثم يتركونهم عند باب الدخول. كما وقفت أتأمل أوتوبيسات المدرسة قد امتلأت بالأطفال، بعضهم عمره أربع سنوات وبعضهم عمره عشر سنوات.

وشيئًا فشيئاً، بدأت أقترب من باب المدرسة، فأرى الأطفال فى الفناء يلعبون معًا "نط الحبل" و"المساكة" أو "صيد الحمام". وأحيانًا كنت أرى بعض الأطفال يمسكون كتبًا بها صور ملونة، يقلبون صفحاتها. وظلت أكرر الوقوف أمام المدرسة عدة أيام.

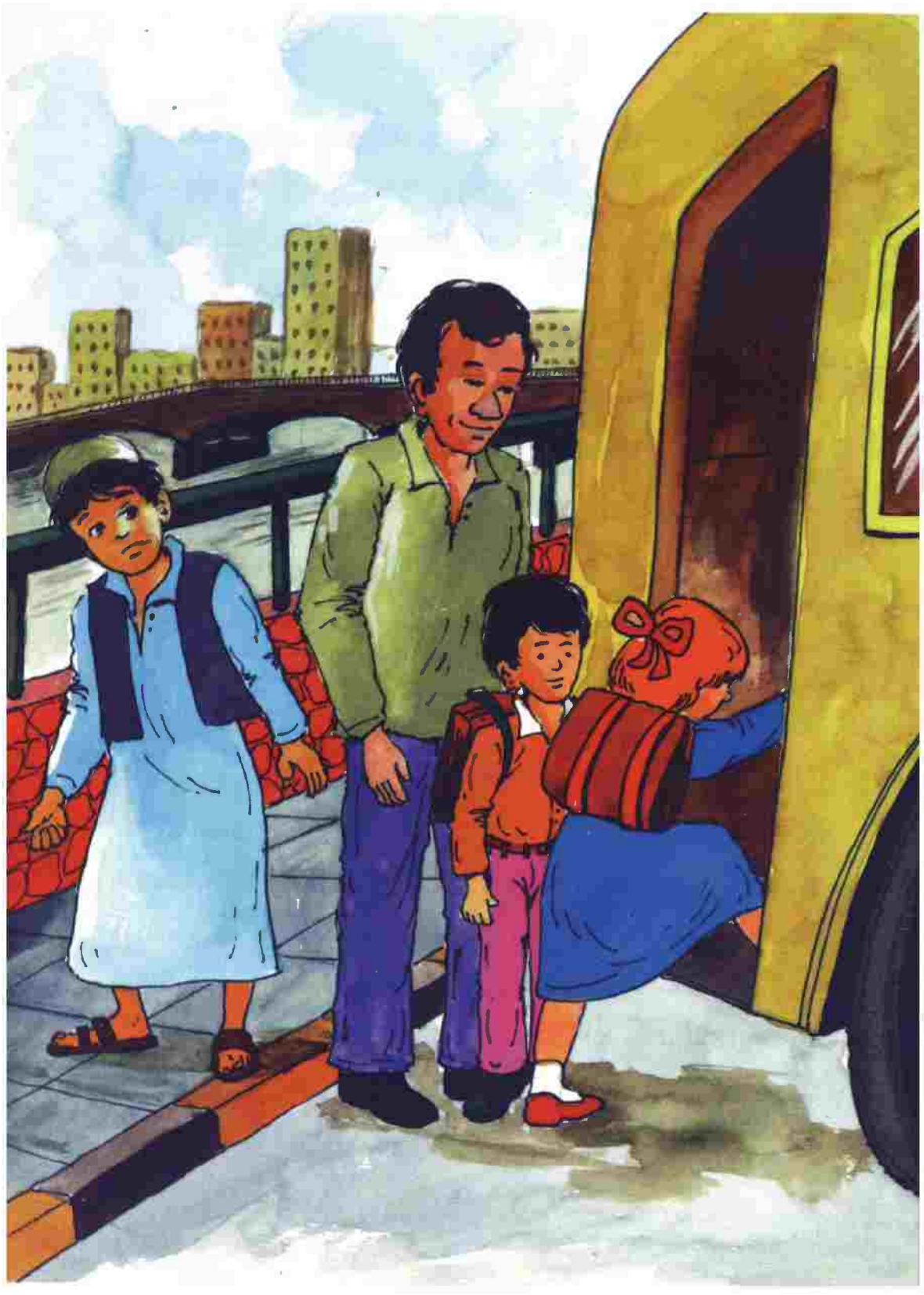

وذات صباح، وأنا واقف أطل من بين حديد سور المدرسة، وجدت من يقف بجوارى ويسألنى: ماذا تفعل هنا؟

وأحسست بالخوف، وهممت أن أجرى هاربًا، لكننى وجدت الصوت الهادئ يقول لى: لا تخف.

والتفت خلفى، فوجدت الدكتور يقف بجانبى، وأشار إلى صاحب الصيدلية.

قال له الصيدلى: ما الذى ظننته عندما رأيتنى؟

قال خالد: فى الحقيقة، تصورت أنك مخبر من "البوليس"، وأنك ستلقى القبض على!

ضحك الصيدلى وقال: هل يشبه مظهرى وجوه وملابس الخبرين؟

قال خالد: اختلاف مظهرك هو الذى جعلنى أقف ولم أجر هاربًا، لكننى أردت أن اعرف حقيقتك، فسألتك: هل تريد منى شيئاً؟

ثم أضاف الصيدلى قائلاً: قلت له إننى شاهدت بالأمس أحد التلاميذ يسقط على الأرض، فانفتحت حقيبته وتناثر ما بها من كتب، فوجدتك تسرع لمعاونة الصبى، وجمعت له كتبه وأداته، ووضعتها فى حقيبته. فقلت لنفسى: هذا ولد طيب.

وعندما رأيتك فى اليوم التالى، قررت أن أتعرف عليك.

لكن قال لى: لماذا رفضت أن تأتى معى إلى الصيدلية، عندما طلبت منك ذلك فى أول يوم؟

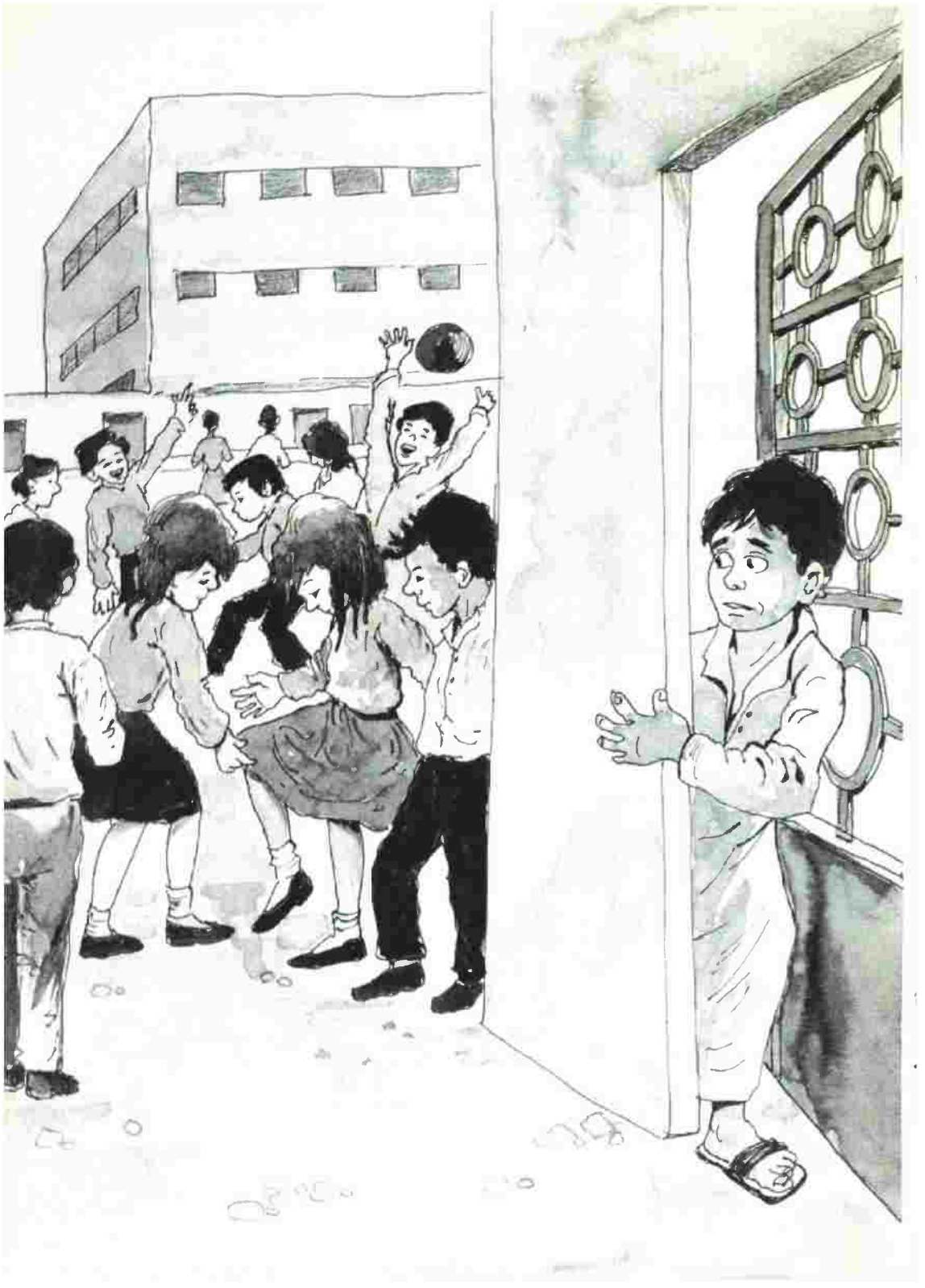

قال خالد: لم أستطع أن أجد سببًا مفهومًا لاهتمامك بى. أنا أعيش فى دنيا تختلف كل الاختلاف عن الدنيا التى تعيشون فيها، وقد خشيت أن تطلب منى أن أعمل خادمًا فى بيتك أو فى احد البيوت.

سألته: غريب أن تفكر فى هذا العمل بالذات؟

قال خالد: لأنه فى إحدى المرات، ذهبت مع والدى لنبيع بعض السمك الذى اصطدناه. وكان والدى يعرف بعض أصحاب الشقق، الذين يشترون منه ما يصيده أحيانًا من أسماك. وفى تلك المرة، قالت لى صاحبة البيت التى ذهبنا نبيع لها أسماك أبى: هل تحب أن تأتى وتعيش معنا؟

لكن أبى أجابها فى ضيق: ابنى عنده صنعة. العمل فى البيوت عيب بالنسبة لنا.

وأذكر أن والدى جمع أسماكه، ولم يبع لتلك السيدة شيئاً.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت أتصور أن سكان العمارات لن يطلبوا منى إلا أن أشتغل فى بيوتهم.

هنا قال الصيدلى: ولذلك رفضت تمامًا أن تأتى معى فى اليوم الأول الذى حدثتك فيه؟

قال خالد: لكنك قلت لى عبارة لم أستطيع نسيانها.. قلت لى: سأجعلك موظفاً فى صيدليتى. وأشرت لى إلى باب الصيدلية المجاورة لباب المدرسة.

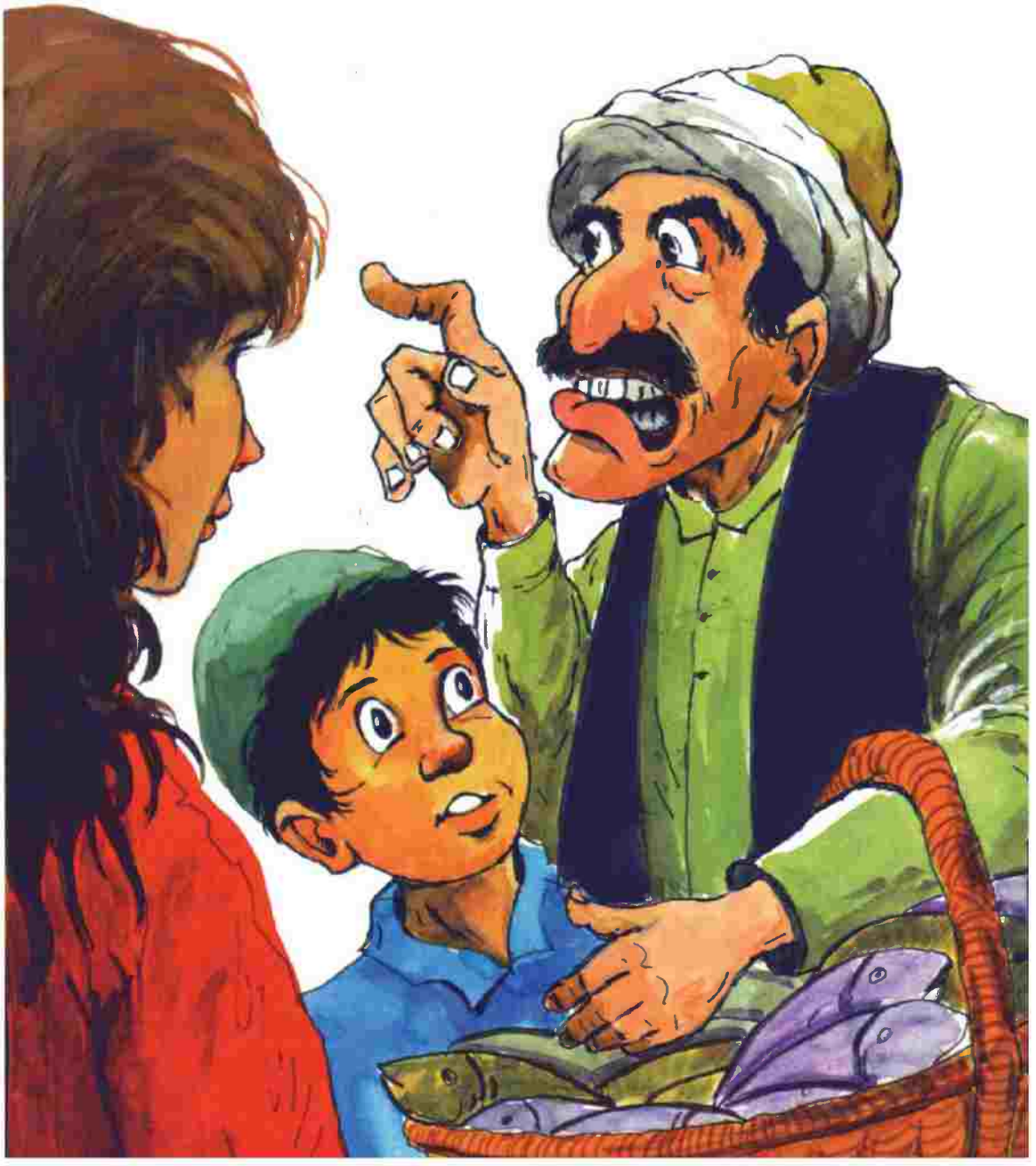

وعندما قلت لى ذلك، لم أفهم معنى "الصيدلية" أو معنى الموظف، فابتعدت عنك بغير أن أجيب عن سؤالك.

ورجعت إلى قاربنا، وسألت والدى: ما معنى صيدلية؟

قال لى: هي "الأجزخانة" التى يشترى منها الناس الدواء.

فقلت له: ما معنى موظف؟

فسألنى: أين سمعت هذه الكلمة؟

فأخبرته بحكاية مقابلتى لك، لكنه صاح فى عنف قائلاً:

أنت صياد ابن صياد، حياتك هى هذا القارب الذى اشتريته بعرقى. أين تذهب وسط الناس الأكابر؟

وشعرت بالخوف من لهجة أبى، فقررت ألا أتحدث إليه بعدئذ بكلمة واحدة عن هذا الموضوع.

***

لكن الشئ الغريب، أن أمى هى التى سألتنى عندما لم يكن ألى موجودًا معنا فى القارب. قالت:

أحك لى يا خالد كل كلمة سمعتها هذا الصباح.

وعندما أعدت عليها الحكاية، قالت لى:

الرجل الذى قابلك فى الصباح، يريد أن تشتغل عنده فى الصيدلية.

سألت أمى:

هل الشغل فى الصيدلية يختلف عن الخدمة فى البيوت؟

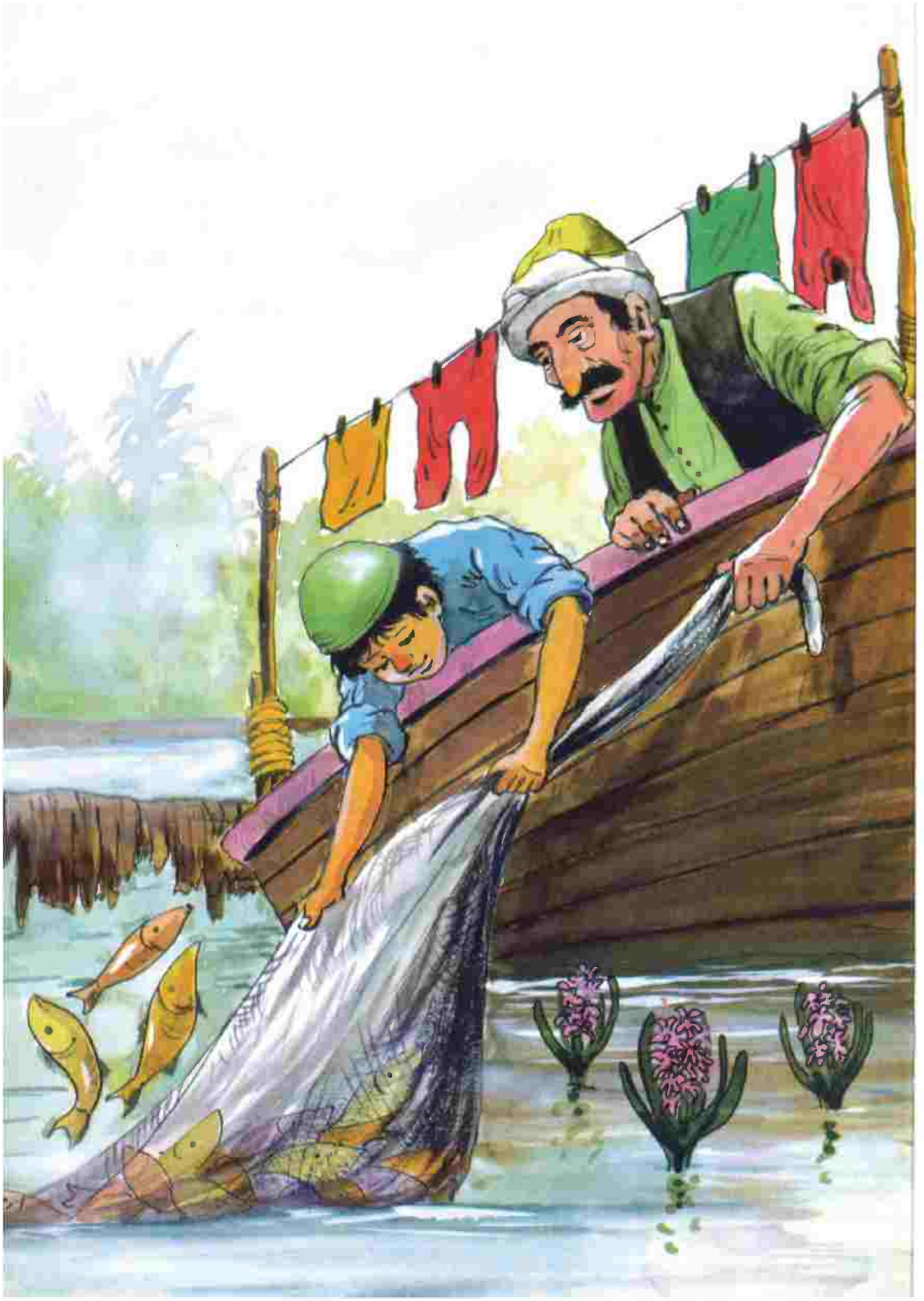

قالت أمى:

يختلف كل الاختلاف، الموظف يذهب إلى العمل فى ساعة محددة، ويقوم بأعمال محددة، ثم يعود إلي بيته آخر النهار.

أما الخدمة فى البيوت، فمعناها: العمل طوال الليل والنهار، بغير راحة، ودون العودة إلي بيت الأهل. ويسمع الخادم الأوامر من الصغير والكبير، وينفذ كل الطلبات مهما كان العمل المطلوب منه.

ثم أضافت والدتى:

الموظف حر نفسه، أما الخدمة فى البيوت، فكأنما الإنسان باع نفسه لأصحاب البيت!

قالت لها: وكيف أتصرف يا أمى، وأبى يرفض أن أذهب إلى "الأجزخانة" لأعمل موظفًا بها؟

قالت لى: أنت لا تعرف أن أهم شئ لكى تصبح موظفاً، أن تكون قادراً على القراءة والكتابة.

قلت: أنتم لم تدخلونى المدارس.

قالت لى أمى: عندما كنت صغيرة، ذهبت إلى المدرسة وقضيت بها السنة الأولى والثانية والابتدائية. لكن والدتى مرضت، واضطررت أن أبقى بجوارها للعناية بالبيت.

وكم تمنيت لو أننى واصلت الدراسة، مثل زميلاتى فى الحارة التى كنا نسكن بها. كلهن الآن بائعات فى المحلات التجارية أو عاملات فى المصانع، أما أنا فحظى أن أعيش فى قاع هذا القارب طوال عمرى!

وعدت أسأل أمى: وما العمل وأنا لا أعرف القراءة والكتابة؟

قالت أمى: سأقنع والدك بأن تذهب إلى صاحب الصيدلية، وتعرف نوع العمل الذى يريدك أن تقوم به.

***

هنا تدخل صاحب الصيدلية، وقال:

وبعد ثلاثة أيام من حديثى مع خالد عند سور المدرسة، لاحظت صبيًا يقف متردداً عند باب الصيدلية.

تطلعت إليه وأنا أسأل نفسى. إذا كان يريد شراء دواء، فلماذا يتردد فى الدخول؟!

فقد كنت أرى مثل هذا التردد عند بعض الأولاد أو البنات، عندما يرسلهم أهلهم لشراء دواء، ولا يكون معهم نقود كافية للشراء.

لذلك تقدمت ناحية الباب.

وفى الحال تذكرت ملامح وجه خالد، فقلت له:

- أدخل.

فدخل متردداً، لكنه لم يقل شيئًا.

سألته هل تريد دواء لأحد أفراد أسرتك؟

فهز رأسه وهو يقول: لا.

وعدت أسأله: هل وافقت أن تعمل هنا؟

قال: هل يمكن أن أعمل وأنا لا أعرف القراءة والكتابة؟

قلت له: تتعلم.

ولاحظت أن "خالد" فوجئ بالكلمة، ثم ابتسم ابتسامة كأنه يسخر مما سمع، وردد كلمتى بغير تصديق:

– أتعلم؟!!

وكررت فى تأكيد.

نعم .. تتعلم!

قال: أنا كبرت.

قلت له: ليس هناك من هو كبير على التعلم.

قال: لكننى لا أريد أن أكنس أو أنظف البلاط.

ضحكت وأنا أقول له:

– أنت لا تقرأ، وعملنا فيه قراءة "الروشتات" وأسماء الأدوية. ولا تريد أن تنظف الصيدلية، فماذا تريد أن تعمل؟!!

***

ووجدته يقف أمامى صامتًا، وقد ظهرت عليه علامات القلق والحيرة.

عدت أسأله: القارب الذى تعيشون فيه.. هل تنظفونه ام تتركونه بغير تنظيف؟

قال: ننظفه.

وعدت أسأله: والشباك التى تصيد بها مع والدك، والتى تتعلق بها نباتات ونفايات من الماء ومن قاع النيل، هل تنظفونها أم تتركونها بما تشابك فيها؟

أجاب: إذا لم ننظفها، لن نستطيع استخدامها مرة أخرى.

قلت له أنا أنظف صيدليتى بنفسى صباح كل يوم. انظر.. هذه هى "المكنسة" التى استخدمها كل صباح.

ووجدته يتلفت بسرعة ويحدق فى "المكنسة"، ثم يعود وينظر إلى فى دهشة.

قلت له هل تظن أن هناك زبونًا يقبل أن يدخل الصيدلية، إذا وجدها مغطاه بالأتربة، أو وجد أرضيتها مغطاه بالبقع؟!

وفى تردد وصوت خافت أجاب: لا أدرى.

قلت له: الإنسان لا يخجل أن ينظف بيت أو مكان عمله، وأنت نفسك.. من الواضح أنك تحرص أن تكون ملابسك نظيفة دائمًا. كن شجاعًا وابدأ العمل هنا،وستتعلم الكثير.

ووجدته يصوب عينيه نحو الأرض ويقول:

متى أستطيع أن أبدأ العمل؟

قلت: من الآن إذا أردت.

***

وأثناء نطقى بتلك العبارة، دخل أحد الزبائن ومع بعض علب الأدوية الفارغة، يطلب أن يشترى ما يماثلها.

وفى نفس تلك اللحظة، بدأت أول درس قدمته لخالد.

قلت له: تأمل جيدًا شكل هذه العلب.

ثم أخذته معى إلى أماكن العلب المتشابهة فوق الرفوف، وقلت له:

أهم شئ هنا، أن تحفظ شكل العلب والزجاجات بدقة، وان تحفظ المكان الذى توجد به كل علبة أو دواء.

وبعد ساعتين، دخل زبون آخر، لا معه بعض علب الأدوية الفارغة. ودهشت عندما فوجئت بخالد يضع أمامى أحضره من فوق الرفوف من علب، كان هى بعض ما يطلبه الزبون، واكتشفت أنها نفس الأدوية التى طلبها أول زبون دخل بعد دخول خالد إلى الصيدلية.

والأغرب من ذلك، أنه خلال أسبوع واحد، كان خالد قد حفظ شكل جميع العلب والزجاجات التى فى الصيدلية، مع أماكنها فوق الرفوف.

***

قلت، وقد تذكرت إنقاذه حياة والدى:

بل يبدو أنه حفظها على نحو أفضل من الكبار!

قال صاحب الصيدلية: نحن الكبار نعتمد على قراءة البيانات، أما هو فيعتمد فقط على حفظ شكل العلبة، وعلى شكل ما عليها من حروف، سواء أجنبية أو عربية.

هنا وجدت "خالد" يقول: ولكننى لم أبدأ فى تعلم القراءة بعد! هنا ضحك صاحب الصيدلية وهو يقول لى:

كنت أنتظر زيارتك. فأنا أعرف أنك قد كتبت عددًا من أنجح الكتب لتنمية مهارات مرحلة ما قبل القراءة، وقد وعدت "خالد" أن أطلب منك بعض هذه الكتب، لكى نبدأ معًا دروس القراءة على نحو منتظم.

قلت وقد ملأنى الرضا: الكتب ستكون عندكم صباح الغد.

***

وفى الصباح، تركت فى الصيدلية كتابى الذى يتعرف من خلاله الأطفال، عن طريق الصور، أسماء بعض الأشياء الموجودة فى البيئة.

وبعد عشرة أيام، ذهبت إلى الصيدلية، فأنهى خالد طلبات الزبائن الذين كانوا ينتظرون أدويتهم، وجاء ناحيتى يحمل الكتاب، وبدأ يشير إلى الصور وهو يقول: "أرنب (أ) ، بقرة (ب)".

كان ينطق اسم الصورة، ثم ينطق الصوت الأول من كل اسم. إنها لعبة من ألعاب الصور والأصوات.

بعد ثلاثة أسابيع أخرى، فتح أمامى الصفحتين المكتوب فيهما حروف "الألفباء" وحدها بغير صور.

وأشار إلى حرف الألف وقال:

"أرنب (أ)، بقرة (ب)، حتى وصل إلي وردة (و)، ثم يد (ي)".

لقد كان شكل الحرف يذكره بالصورة، فإذا تذكر اسم الصورة، استطاع أن يتذكر أول صوت منها.

وهكذا استطاع، خلال شهر واحد، أن يميز أشكال حروف "الألفباء"، واستطاع أن يعرف كيف ينطقها.

***

عندئذ قررت أن أتولى أمره بنفسى. كنت أقضى معه ساعة فى فترة المساء، ثلاث مرات كل أسبوع.

وبعد سنتين، نجح خالد فى امتحان نهاية المرحلة الأولى من التعليم الأساسى.

لكنه لم ينس سؤال التعبير فى ذلك الامتحان، والذى لم يستطع أن يكتب فيه كلمة واحدة.

كان السؤال يقول:

اكتب ستة أسطر عن غرفة المائدة.

ويقول خالد: لم أسمع من قبل من شئ اسمه غرفة المائدة. وقد قال لنا ملاحظ الامتحان، إنها الغرفة التى نتناول فيها الطعام، لكن لم أتصور فى حياتى أنه يمكن تخصيص غرفة بكاملها لتناول الطعام، ولا ما هى الأشياء التى يمكن أن توجد بها. لقد كنا نتناول طعامنا ونحن نجلس "القرفصاء" على قاع القارب أو على حافته، أو الجلوس على طين الشاطئ.

لكننى أصبحت متلهفًا، بعد ذلك الامتحان، أن أعرف شكل محتويات المساكن، التى يطلبون منا أن نكتب عنها فى أوراق إجابة الامتحانات.

***

وبعد عامين، حصل خالد على شهادة المرحلة الإعدادية، نظام طلبة المنازل، وفوجئ بموضوع التعبير يقول: "خرجت يومًا إلى نزهة فى النيل، اكتب وصفًا لتلك المرحلة.

يقول خالد: النيل بالنسبة لى، هو بيتى دنياى وحياتى، فكيف أتصور أننى مجرد زائر، جئت أقضى فيه بعض ساعات؟

لم أجد إلا أن أكتب وصفًا ليوم من أيام حياتنا،التى نقضيها كلها من قاربنا، نأكل وننام، نتسامر ونختلف، أستذكر دروسى وأعمل في الصيد مع أبى.. وعليه نعيش ومنه نحصل على رزقنا وقوت حياتنا. القارب هو الأرض التى غرست فيها شجرتى،

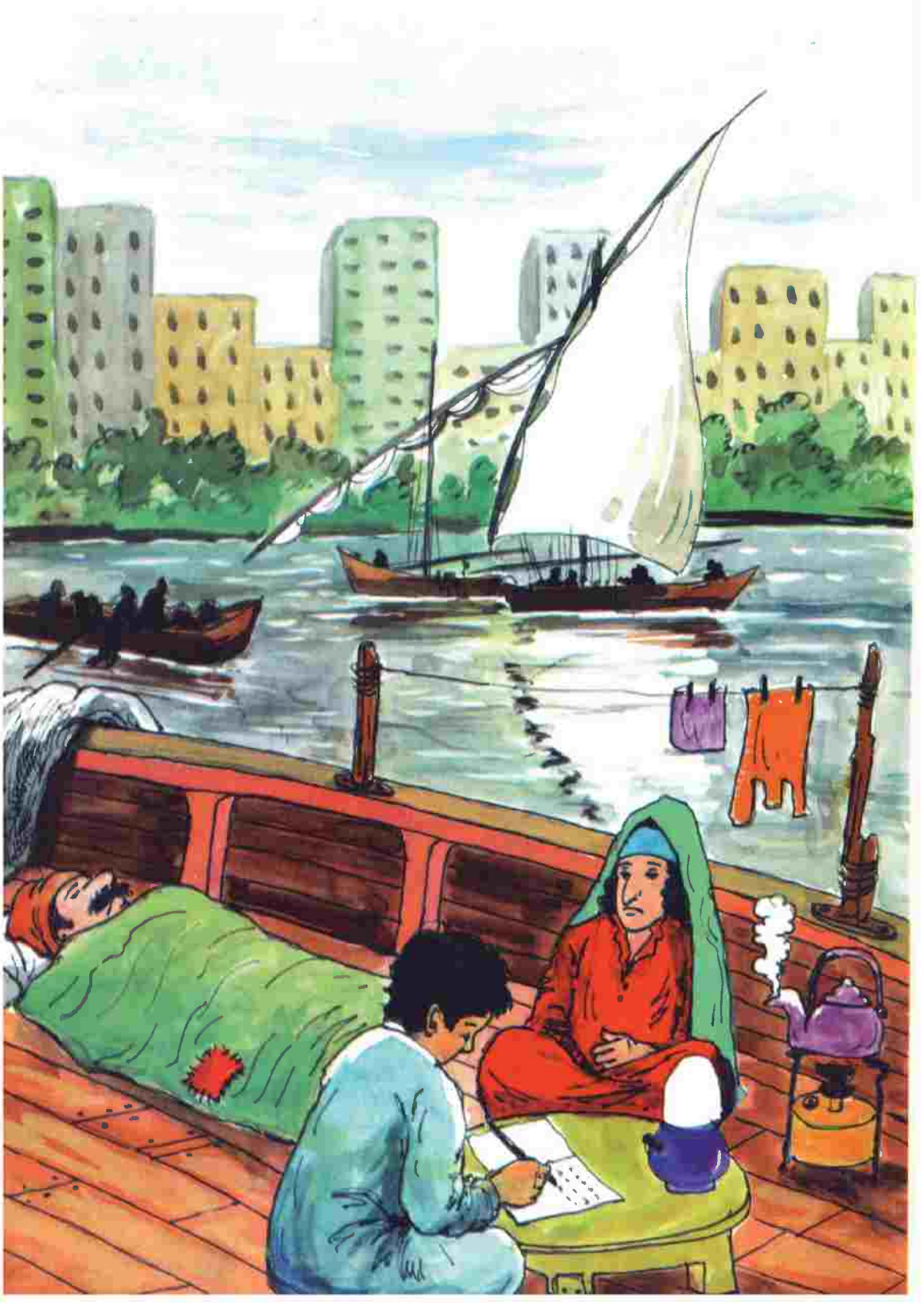

ولا تعرف شجرة حياتى أرضًا غيرها.. لا أستطيع النوم إلا والسماء الفسيحة فوقى، ولا أشعر بالأمان إلا وماء النيل يهدهد قاربى..

سألته فى دهشته: أنت كتبت هذا فى الامتحان يا خالد؟

قال خالد فى ثقة: وحصلت على درجة تكاد تكون النهائية فى اللغة العربية.. لقد أدرك المصححون أنه لا يوجد من يحب النيل أو يعرفه أكثر منى!

***

والآن، أثناء مرورى أمام الصيدلية عدة مرات كل يوم، أرى "خالد" قد أعطى ظهره "للتليفزيون" الذى يوجد فى الصيدلية، وهو منهمك فى قراءة كتاب، ويمسك بيده قلما يكتب به أحيانًا بعض الملاحظات.

لكنه يسرع واقفًا عندما يدخل أحد الزبائن إلى الصيدلية، ليحضر له ما يحتاج من أدوية.

وليس عندى شك، فى أن "خالد" سينتهى بعد سنوات قليلة من دراسته الجامعية، ويصبح هو أيضًا طبيبًا أو صيدلانيًا.

ولن تصيبنى الدهشة، إذا استطاع أن يحصل على الدكتوراه فى أحد التخصصات العلمية، من مصر أو من إحدى الجامعات العالمية، وقد يصبح وزيرًا، أو رئيسًا لإحدى الجامعات، أو لعله يصبح عالمًا، يقدم للحضارة اكتشافًا مثيرًا، أو اختراعًا عبقريًا.